

الملح الذي نزرعه ..

قصة بقلم محفوظ عبدالرحمن

في « الالباذة » يذهب « اوليس » الى شاطئ البحر ليحرب الرمال ،
وعندما يسألونه لماذا يحربها يقول : لكي أزرع الملح !
كم منا من يزرع الملح في حياته .. برغمه !

- 1 -

« باب ضيق - مثل هذا المر الخشبي - امر منه في هذه الايام
... كل شيء ناس .. دعا المسيح الناس الى ان يدخلوا من الباب
الضيق .. لكنني ادخله دون دعوة من احد ... برغمي .. ان مسن
الصعب على الانسان ان يحتفظ بتوازنه فوق هذا المر الخشبي .. وانا
اسير فوق ممر اخر لا اعرفه .. لا اعرف نهايته .. ولا اعرف متى
اسقط من فوقه .. »

وابطات خطرات نبيل ، فدفعته من الخلف اصابع شخص مجهول ..
اسرع الى السفينة المزحمة ... التفتت عيناه حركات الايدي التي
اخذت تشير اليه تنبيه الى مكانها ..

ويحث لنفسه عن مكان بين الوجوه التي كان يعرف اكثرها ، واختار
مكانا بجوار (انعام) ذات الثوب الازرق ، فصاحت فيه زميلة اخرى
لهما : - اجلس بجوارها .. اقمم اني لن اتزوجك !

وضحك .. ضحك كثيرا ، حتى بدا له انهم خرجوا اليوم ليضحكوا
فقط .. كانوا يخرجون في رحلات كثيرة ، وكانوا يلحون عليه ان يذهب
معهم .. وكانت هذه اول مرة يستجيب فيها لدعوتهم ..

« مر ضيق امر به .. ورحي تضغط بين جدرانها القاسية ...
كم اتمنى ان اخلو الى نفسي في هذه الرحلة .. لو حرموني ذلك
فسأعود مرة اخرى وحدي .. اه لو استلمت ان اذهب الى حافة
الباخرة .. المياه البنية تمتد الى الارض السوداء .. لا شيء يجذب

الاهتمام سوى السماء الزرقاء .. صافى لونها يهز قلبي .. اتمنى
كطفل ان امد يدي ، واضبت في رغاي لونها الازرق ... قلبي يتمزق
بامسء اغنية فيروزية حزينة .. وايكي وانا استند الى حافة السفينة
الصلبة .. وربما لا ابكي ... فقط اريد ان اكون وحدي .. ولكنني
لا استطيع .. انهم ينظرون الي .. نظراتهم تطالبني بان اهتم بهم ،
واضحك في وجوههم »

ويتنزع نبيل ابتسامة من شفثيه المستقيمتين كأنهما لا تعرفان الكذب ..
وتبتسم انعام في وجهه كأنها تقول له « كن معنا » وهي تجذب من تحته
طرف هستانها .. وينظر الى ميرفت زميلتهم ويقول لها كلمات الفزل
العابثة التي تصحك الجميع ، كلهم يعرفون ان مايربطهما ليس سوى
صداقة قديمة ..

« اريد ان اكون وحدي .. لكنني احس بحب غنيف لانعام ، ولوجه
ميرفت الطفولي الذي يملأ نفسي برغبة في البكاء .. انني احبهم برغم
ان نظراتهم تعذبني .. انهم الجثة والجحيم معا »

وكادت ان تلتع في عينيه دعوع برغم الابتسامة « الزائفة » التي
ارتسمت على شفثيه .. الصخب يخلق في نفسه احساسا مملبا
بالوحدة ...

وبدأت حركة نشيطة على ظهر السفينة ، وخف الضجيج ، ثم علا اكثر
مما قبل ، وصاح نوتي ينادي على زميل له ، وازيحت البفينة السى
جوف البحر ، وسمع صوت الماكينة ، واخذت الريح الباردة تصرب
الوجوه ، وسارت السفينة في طريقها الى القناطر الخيرية .. رحلة
كل يوم .

قالت له انعام :

- هذه نالت مرة اذهب فيها الى القناطر .. هل ذهبت اليها كثيرا ..
- هذه اول مرة ..

فصاحت في انهشاش الطفل الذي اكتشف انه يعرف اكثر من ابيه :
- غير مقبول ..

لم يخرج في حياته الا في رحلات قليلة .. قليلة جدا ، حتى عندما
كان تلميذا صغيرا .. كانت امه تصيح في وجهه عندما يطالبها بفروش
للرحلة قائلة انهم يجدون ثمن الطعام بالكاد .. وكان يهز كتفيه لزملائه
في تعال قائلا لهم انه لا يريد ان يضيع وقته ، مرة واحدة وهو صغير ذهب
في رحلة الى الجبل ، وتركه يومها صديقه الذي ذهب معه ، وتعرف
على صبي اخر .. شعر ساعتها بوحدة وخزي ما زال يحمل انارهما
حتى الان .

وصاحت فيه ميرفت :

- لماذا انت حزين هكذا ؟

وكانما تذكرت ، فصاحت مرة اخرى :

- لماذا لم تات باحتك معك ..

- مهما فعلت يا ميرفت .. لن يتزوجك !

وضحكوا .. وزاد ضحكهم عندما غضبت ، واخذت تحاول الوصول
اليه لتضربه بحزامها الذي خلصته عن وسطها الدقيق ..
اطفال تعدوا العشرين ..

✱ ✱

وانتهزت انعام فرصة التفات زملائها الى ميرفت ، وانحنت عليه،
وقالت له :

- كيف صحتك الان ؟

... كانت الوحيدة التي تعرف انه مريض .. مريض فحسب ..
لم تكن تعرف اي مرض يماني .. منذ اسبوعين كاد ان ينهار وهو معها
.. طلبت منه ان يذهب معها الى المستشفى ، لكنه رفض ، وغضبت
منه حينئذ ، انها لا تعرف اية تجربة عنيفة دخوله الى مستشفى ،
وتركها ليذهب الى طبيب صديق ..

« ماذا اقول لها ؟ هل اقول لها باي شيء انا مريض ؟ هل التي
في وجهها بالكلمة البشعة ؟ »

- الان افضل ..

« هل اقول لها ؟ انني احبها .. الجميع يعرفون ذلك .. بل انها
هي نفسها متأكدة ان كلمة الحب على شفثي منذ وقت طويل .. هل
اقول لها ؟ وهل اقول لها لماذا لم اعلنها بحبي حتى الان ؟ »

كان الذكور عزيز واقفا ، ووراءه لبة النور ، فلم ار ملامح وجهه
وهو يتكلم :

- انني اعرفك منذ وقت طويل .. ولا داعي لان اخفي عنك
الحقيقة .. انت مريض بال...
وامسكت عندئذ بصدري من عنف الكلمات ، واخذت اسمعه :

- في الدرجة الاولى .. هل اطلب منك ان تعنى بنفسك ؟ انني
اعرف حججك كلها .. لكن حذار .. انك تنتحر بهذه الطريقة .

« ايها الحزن .. اذهب .. اذهب سريعا »

ومد يده ليخفف دموعه ، وافلتت منه نظرة الى الباقين بعد ان احس بخفوت اصواتهم ، ففوجيء بالنظرات تتجمع حوله . وانهمك في مسح دموعه .. وهو يسأل نفسه « ماذا يفعل ؟ » ولم يستطع احد ان يمزق السكوت غير ميرفت .. قالت :
- ماذا حدث يا بلبل ..؟

نظر اليها من خلال دموعه .. « شيء بريء .. كائن نظيف .. لم نعرف الحزن المر ايدا .. تخرجت قبلي من الكلية مع اننا دخلنا معا ، لانهم طردوني ذات مرة ، عندما لم استطع دفع المصروفات .. لم تمر طوال حياتها بتجربة تثير اشمئزازها .. لم تمد يدها الى الاخرين تطلب منهم في زلة نفودا .. لم تسر عشرات الكيلومترات لانها لا تملك قرشا واحدا .. لا تشم رائحة الجلود التي تثير الغثيان ستة ايام في الاسبوع ، وفي اليوم السابع تذهب الى الكلية لتدرك ما فاتها .. لم تنم ذات مرة جانعة والى جوراها ام واخت جانعتان .. لا يمزق السل صدرها »

وانفجر في البكاء ..

وحدث هرج .. وتحرك الموجودون .. واحاطوا به .. وقالوا له كلمات كثيرة .. وسألوه عما به . ومدت انعام يدها اليه ثم احاطته بنراعاها غير خائفة من لوم احد ، ولكن شيئا كان اقوى من كل ذلك يمزق اعماقه بالبكاء ..

ونشط التوتي على ظهر السفينة ، فلقد رأى على البعد شريطا مليئا بالثقوب .. وكادوا ان يصلوا .

- ٢ -

- افزري .. او احملك !

ضحكات كثيرة .. اسرعوا يقفزون الى الشاطئ .. ايد تمتد الى ايد .. وزكي وافف في نهاية المزدحمين .. « هكذا انا دائما في النهاية انها انفاقية من جانب واحد مع القدر .. ان اكون دائما في النهاية .. في كثير من الاحيان اجلس لكي (اعد) نفسي بين الاخرين .. منذ لحظات فحسب صنعت ذلك .. الولد اسماعيل اوسم الشبان وانسا الاخير .. وعواطف اكثرهم تفوقا وانا الاخير .. لماذا تستمر هذه الاتفاقية الفاسية ؟ لماذا انا الاخير دائما ..؟ في بعض الاحيان يخيل الي ان النحاس نبات منسلق ، كالبلابل يصعد فوق جسدي ، لا يمكن ان يعيش بدوني .. كيف يكون هناك نحس بدون زكي ؟ لا يمكن طبعاً !! حتى بلبل العزيز الذي يبكي فجأة وسط عشرات الناس ، وتتغير فجأة ملامحه الوسيمة ، وتقلب الى ملامح مشوهة ، ويختفي لون عينيه الجميل وراء الدموع .. حتى بلبل ليس اكثر تعاسة مني .. انه كثيرا ما ياتي الي في غرفتي التي اسكنها ويذاكر معي .. ويحدثني كثيرا عن تعاسته .. عمل مرهق منذ الصباح حتى المساء .. الدراسة والاسرة والازمات المالية .. لكن بلبل كان يحببه دائما شيء في داخله .. كنت احس دائما انه قد رتب مصيره في داخله قبل ان يتعلم به في الخارج .. كان يحب .. وكان ينحس لاشياء كثيرة .. ولكن انت لماذا تنحس يا زكي ؟ لا شيء .. لا شيء ايدا .. بل لماذا تعيش ؟ لا هدف .. لا هدف .. لا هدف ايدا . المستقبل مثل الماضي صفحة باهتة ليس عليك حتى نقطة همة ؟ في بعض الاحيان ، عندما كان بلبل يذاكر معك كان يقطع المذاكرة ويقول في تحد ومرح : آه لو تركني اعيش عشرة اعوام اخرى ! انه يعتقد انه سيستطيع ان يصنع اشياء كثيرة .. ولكن انت ماذا ستصنع ؟ ايه .. هل تبكي يا عزيزي بلبل ..؟ ما الذي يبكيك ؟ ازمة مالية ؟ مشكلة في العمل ؟ .. ايب .. يا عزيزي بلبل ان الذين لا يكون اكثر الناس حزنا !!

وامتدت يد تجنبيه من مكانه ، وتسرع به الى الشاطئ .. انها يد اسماعيل .. آه .. كم يحب هذا الشخص ان يخفي الحزن الذي يرسم في عينيه الصليتين بشفتيه اللتين تبتسمان دائما ..
- ما لك ؟ لماذا تقف هكذا كممود النور ؟
وسارا معا ..

قلت لنفسي في ذلك الوقت « لقد ظلت اخاف منه طوال حياتي ، ولقد جاء اخيرا .. ولكن ماذا بهم في الدرجة الاولى او الدرجة المائة ! ما الجبوى ؟ ان النهاية واضحة .. الموت ! يا للحزن ! ان رائحة الجلد ما زالت تطاردني حتى قتلت الشم في انفي والصحة في صدري .. انت يا خواجه دافيد المنتصر الوحيد .. »

* *

وهمست له انعام كانما ارادت ان تقنعه بهذه الهمسة انها نجية :
- فيم انت سرحان ؟

فنظر اليها بطريقة بين الجد والعبث :
- سرحان فيك ؟

وفلقت للطريقة التي قال بها الكلمات .. واخذت تفتش في عينيه عما يعني .. كان يريحا لو قالها عابثا فحسب .. او انه قالها كحديث جاد .. وكانما ارادت ان تعاقبه ، فقامت لتشارك الاخرين عبثهم . ونظر اليها .. انها تشبه المصافير في ثوبها الازرق ..

« لقد كنت اسير معها في طرق الجامعة العريض .. قلت لنفسي في تلك اللحظة : تزود يا ولد بنظرة من كل شيء حولك ، فان هذه اللحظة ستذهب ذكرى عندما يشيب شعرك ! وكانت تحمل كتبها على صدرها كما تحمل الام طفلا في لحظات الصفاء .. واثناء الحديث قالت لي ان ان بيتنا صغيرا لاتنين امر سهل اذا تسانعت الايدي .. ومنذ ذلك اليوم اخذت ارسوم صورة للشقة التي سنعيش فيها .. ستائر كثيرة - هذه فكرتها - والكراسي لونها ازرق .. والمطبخ نظيف ولامع ، ولكن الاحلام انتهت مع الكلمات القليلة التي قالها الدكتور ... »

وعادت انعام ، وجلست بجوارها .. كانت تحب ان تنظر في عينيه وكان هو ايضا يحب ان ينظر في عينها الملوتتين .. لكنه مع ذلك استعذب ان يجلس بجوارها تلامس كنفه كنفها ، وتلامس ذراعها ذراعها .

* *

قالت له في همس :

- هل ابطلنا السرحان ..؟

فضحك في وجهها :

- ابطلنا يا سيدتي ..

واحست في صوته سخونة جعلتها تستريح ، وتقرب منه .. « لا .. لا يا حبيبي ، لا تقتربي .. لا تقتربي .. انني مريض .. واخاف عليك من انفاسي .. هل اقول لها ؟ لماذا لا اقول ؟ .. اللحظة قصيرة خيل الي ان شخصا في اعماقي يمز كتفيه ، ويقلب شفتيه ويقول : طبعاً لانك جيان ! انا جيان !! ربما .. من يدري .. لقد هزنتي الازمة حتى لم اعد ادري اشياء كثيرة . قد اكون جيانا ، ولكنني مع ذلك بطل .. ليس هناك مانع من ان اكون جيانا وبطلا .. لكنني احس بانني اكبر من نفسي .. انني ابتسم ، انني واقف على رجلي .. لم اشك لاحد .. انني قوي .. قوي جدا . اعلم انني ساموت لو لم استرح ، ومع ذلك لا استريح .. اموت واصنع الحياة لاختوي الثلاثة .. انني اموت واقفا .. ولا اطلب من احد ان يبكي علي .. آه انني اذكركه ، صديقي بكر . قبل ان يموت قال لنا ونحن حوله ، وعلى شفتيه ابتسامة جريئة : لا .. لا .. لماذا تبعدون هكذا ؟ ارجوكم الا تحزنوا ! وبعد ساعات قتلته اللبحة الصدرية .. انني ساكون مثله .. ساموت .. وسامح دموع الذين يبكون حولي .. انني ساغضب منكم ايها الاصدقاء لو حاولتم ان تحزنوا من اجلي .. اما انت يا حبي ، فانني اطلب منك ان تحزني .. ان تحزني قليلا .. ما اسعد ان اتال من قلبك شيئا ، ولو الحزن القليل .. »

قالت له انعام بصوت بدا فيه انها قد احست بان هناك شيئا يلتهب في اعماقه :

- هل تفكر في شيء ؟

وعندما ادار لها راسه ليواجهها ، ولمسمع ما تقول ، كانت عيناه ممتلئتين بالدموع ، حتى انها بدت امامه شبها غير واضح ، مختلطا بالمياه والشاطيء والسما ..

- انظر يا زكي ، في هذا المكان كان حبي الرابع .. فتاة قابلتها في القناطر ، وفضينا يوما من اجمل ايام حياتنا !
« ايها المبالغ الظريف ! »
- وكيف انتهى حبك الرابع ؟
- لا شيء .. اكلت كل السنديوتشات التي احضرتها معها .. فاعتقدت انني نهم محروم - برغم انني لست كذلك كما تعرف ! - وتخلصت مني بوعود لم تات فيه .. وانا لا اعرف سوى اسمها .. ليلى .. وفي القاهرة الف ليلي !
- وهل حزنت من اجلها ؟
- طبعاً .. يوماً كاملاً !
واخذ يضحك فجأة ثم قال :

- تصور انني اثناء العودة اخذت ابادلها الفزل في الزحمام الشديد .. ثم اكتشفت ان هناك عجوزاً ظلت تسمع كلامنا كلمة كلمة باستنكار شديد حتى وصلنا !
وتوقف ، ونظر الى صديقه في شبه جد ، وقال لابسا ثوب الاستناد كما يفعل كثراً بقصد اشاعة المرح :
- اسمع يا زكي .. ان هذه العلاقات تمر سريعاً .. ولكن لا بد ان تترك بنت ذات مرة ، وقد تركت في قلبك جرحاً طويلاً كجرح السكين .. ويبدو لي يا عزيزي ان هذا قد حدث لك الان ، لانك تبدو ساهماً كأنك لا تسمع !
وضحكا وهما يجريان على الحشائش ، واحتضنه اسماعيل ، وهو يقرب شفثيه من اذنه :

- أهي عواطف مرة أخرى ؟!
كان يعرف الإجابة ، فلم يقل له زكي شيئاً ، لكن اسماعيل لم يسكت .. وفف .. وقال بصوت نصف عال :
- يا عالم .. يا هو .. هل يجب احد فتاة تلبس نظارة !
وانحنى على زكي ، وكأنه يهمس له ، وقال :
- لقد احببت ذات مرة خادمة .. وراقصة من سنباط .. لكن بننا تلبس نظارة .. يا حفيظ .. يا حفيظ .. لا يمكن !
وسكت فجأة ، واخذت عيناه تتبعان فتاة تسير عسى بعد .. وقال له :

- اسمح لي .. هدى تسير وحيدة .. وهذه اهانة للجمال .. بعد اذنك !
وجرى اليها ...

« آه .. ان في قلبي جرحاً .. ولكنك يا اسماعيل دائماً تنكاه ، وتجعله ينز دماً .. ايها الغاسي .. هل حزنت عندما تركتك حبيبتيك التي ظلت تعيش في حبها ثلاثة اعوام كاملة .. كانت اخلص حبيبة ، ثم فجأة وضعت ديلة في اصبعها خنفت بها فرحك .. ان عواطف لم تعطف قلبها لاحد .. ولكنني حزين اكثر منك .. فانت لا تعرف شيئاً عن نظام الارقام في حياة البشر .. لانك الاول في شيء على الاقل هو الجمال .. عيون البنات تاكل في كل لحظة .. اما انا فانهم ينظرون الي ... »

ومد يده يتحسس انفه الكبير .. عندما كان صغيراً سقط به كرسى على صندوق حديدي في بيتهم ، فكسرت عظمة انفه ، ولم يبالوا بارساله الى طبيب ، فالطبيب يريد نقوداً والمسألة لا تهم .. وظل انفه يكبر حتى اصبح غير عادي .. عندما يكلمه احد ، فانه يؤمن بان عينيه تنتقدان انفه ، وعندما يكلم فتاة يخيل انها تنظر الى انفه ، فيضطرب في الحديث ، ويود ان يهرب من امامها .. ولذلك لم يستطع ان يتكلم مع عواطف خلال سنوات اربع اكثر من بضع دقائق في مرات معدودة .

✱ ✱

وجلس زكي تحت شجرة استند الى جذعها ، بعد ان التى نظرة سريعة على رسوم القلب والحروف التي حفرت عليه ، واخذ يقرب الناس في غير اهتمام .. وكان يرى احياناً واحداً او اكثر من زملائه .. نبيل يسير مع انعام وفي حركاتهما انهماك وحماس .. اسماعيل

يضحك بصوت عال مع هدى .. عواطف تسير مع صديقتها التي لا تفتقر عنها ابداً . لا يد انها تتحدث معها في الدراسة .. انه الموضوع الوحيد الذي تحب ان تتكلم فيه .. ولكنه ايضا عاجز عن ان يتحدثها في كلام اخر .. انه الملوم .. آه كم هو ساذج وعاجز .. لا ينسى ابداً عندما قابلها في شارع النيل .. قبيل مدفع الافطار . الشارع خال من الناس . وسارت على الرصيف الايمن .. وسار هو على الرصيف الايسر .. يتبادلان النظرات في خجل ، ولكنهما لا يتكلمان .. لم يجزوا ان يتحدث اليها .. ان يلقي اليها بالتحية .. ان يكلمها حتى في « علم نفس الطفل » الذي يستثقل ظله !

« ولكنك مع ذلك لست حزينا من اجل عواطف فحسب .. انك مهتم بها ، غير انها ليست المشكلة التي تحزنك . ان الحب الفاشل يخلق في قلوبنا طعاماً من العذاب المر .. انه يعني ان حياتنا تملئ بشيء ذي قيمة حتى ولو كان حزينا . ولكنك تمزق في كل لحظة وانت تشعر بالعار .. آه .. لو عرفوا .. هؤلاء الاصدقاء الذين يعيشون في حياة وردية .. حتى نبيل لا يقاسي الا من النقود »

« ليس فيهم من يعرف ان اباك الان سجين هناك .. يعيش وراء القضبان مثل الاف اللصوص والنشالين وتجار المخدرات والقوادين .. آه .. كم يخلق لك تذكر هذا الموضوع مرارة في فمك .. كم كانت الخطبات سريعة وفاقسية .. جاءت اشاعة انه قبض عليه في قضية تسعيرة .. ثم جاءه الخبر الاكيد .. واسرعت الى البلد .. صور تجري امام عينيك سريعة حادة .. المحكمة .. الحاجب المتسخ الثياب .. المحامي ذو القلب البارد .. رجال التموين .. التحليل الكيماوي .. لحم الماعز . شعرة تثبت ان .. اربعة عشر قرناً .. يا .. لقد اصبت بصداع هائل طوال تلك الايام ، وكانت النتيجة ان دخل ابوك السجن . ما افسى ما حدث على نفسك عندما تسترجع صورة ابيك في ثوبه البلدي الفصفاص .. هائل الجسد في وجهه وقار ، وفي مشيته ثقل ، عندما كان يأتي من اول الحارة تجري النساء لكي يختبئن من نظراته احتراماً له ، ويقف الرجال رادين التحية مقسمين بالله ان يأتي ليشرب الشاي ، وهو يسير هادئاً في عينيه سرور طيب . »

« آه .. كم احبك يا ابي .. وكم اقدسك .. لا شيء ينال من صورتك في ذهني حتى صورة السجن بجدران الكابية ، وصوت الجنود وهم يأمرونك ان تفعل ، فتطيع .. آه .. انه امر يستحق الضحك يا ابي .. عندما اتيت لزيارتك في اخر مرة قلت لي : شد حيلك .. عندما اخرج من هنا بعد عام ساخط لك ابنة خالك ! واحنيت رأسي في خجل ، ماذا اقول له ؟ هل اقول له : لا تفكر يا ابي في هذا الامر وانت بين اربعة جدران رمادية ! هل اقول له : لقد احببت يا ابي منذ وقت طويل فتاة بي توفق شديد الى ان اكس يدها ! واخذ يضحك من خجلي ، ويخبرني بسخرية انه كان يعرف ميلي لها منذ وقت طويل ، وان السبب في حزني وشرودي هو هذا الامر . وان امي هي التي نهته الى ذلك . امي ! كل ما تريد هو ان تزوج ابنة اختها . يا للاماسة ، هؤلاء الناس لا يحسون بان على اعناقهم سكيناً ، ويضحكون ، ويعتبون ، ويفكرون في تزويج من لا يريدون ان يتزوجوا .. انني لا اريد ان اربط حياتي بحياة اخرى غيرها .. تلك التي سهوت من اجلها ابكي الليالي الطويلة عواطف ذات النظرات التي لم تعجب اسماعيل ابداً »

ولمح على بعد عواطف مرة اخرى فاتجه قلبه ناحيتها ، وتركز اهتمامه حول الهالة التي تسير فيها .. ولكن جلبت انتباهه صورة عابدة وهي تسير بسرعة .. ثم شخص يتبعها من بعيد في حذر .. هو اسماعيل !

« ألم تنته هذه القصة بعد ايها الماكر .. لقد تركتك .. هجرت حبها الوحيد .. لتتزوج من استاذك واستاذها .. فماذا تريد بعد ذلك .. او على الاصح ماذا تريد هي منك بعد ذلك ؟! »

- ٢ -

كان في نظراتها تعال وكبرياء ، وفي خطواتها ثقة من لم يخطئ في حياته ابداً ، قالت لبانمة البرتقال :

- بكم الالة يا ست ؟

وفي نفس اللحظة سمعت صوتا يسأل البائعة في هدوء مفتعل :
- بكم الالة يا ست ؟

ولم تلتفت وراها .. ولم يظهر على وجهها اي اثر للانفعال ..
كانت عيناها باردتين كالجليد .. ولكنها كانت منهارة من الداخل، كانت
خائفة ومضطربة، مثل جندي سقط كل زملائه قتلى وبقي وحده يحارب،
كانت تمنى ان تلتفت اليه، وتمسك بيده، وتقرب منه، وتحدث اليه،
رائحته تسكرها دوما .. واضطرت ان تلتفت اليه وهي تخفي اضطرابها
وتقول له :

- صباح الخير ..

لا رد

شامخ ، طويل القامة ، ابيض اللون مثل اله اغريقي ..

صمت ... ثم صوته الحلو :

- لعلك ان تكوني بخير ..

واحتت رأسها بانسامة خائفة :

- شكرا ..

- وان تكوني سعيدة !

رنت كلمته الاخيرة في اذنها كرنين طيلة الحرب في اذن زنجي ..
انه يتحداها .. انه يجتذبها ليتشاجر معها .. فالتفت اليه ،
وقالت له :

- انك تتبعني في كل مكان .. ونظراتك ابدا ملقاة علي .. ماذا

يقول الناس عني .. «عمر» قد يلاحظ ذلك !

كاد ان يضحك .. ولكنه قال في هدوء :

- هل ضايقتك ؟

قالت ، وقد بدا صوتها يرق :

- لا .. ولكن ارجو لا تعذب نفسك ، ولا تعذبني معك .. لقد

انتهى كل شيء بيننا !

« انتهى كل شيء ! كيف .. على شفيتك هاتين اثار من شفتي ..

وعلى خدك اثار من ضغط خدي .. هل نسيت كلماتك المحمومة عندما

كنا نغرق في القبلات : احبك .. احبك ! هل نسيتها .. ناس كثيرون

يسنون الماضي .. ولكن انا وانت هل نحن من الذين ننسى ؟ وهل

نستطيع ان ننسى ؟ انني مخدوع .. ولكنني مع ذلك لست سلاج ..

انني افهم جيدا ان كلمات الحب كانت صادرة من قلبك حقا ، وان

شفيتك لم تلمسا قبلا احلى من الماضي .. ولكنك لم تحتلمي الصبر

.. كان الوقت يمر علينا في بده ، والمستقبل مخنوق في ضباب ..

ومثلما تصعد نحلة على حائط وتسقط ثم تعاود السقوط وهي تحمل

ذرة من طعام ، كنت اعيش .. انتظر اليوم الذي نصل فيه معا .

ولكنك لم تستطعي ان تكوني كالنحلة .. لم تستطعي ان تحتلمي ..

سقطت في احضان عجوز .. الدكتور عمر .. استاذك الذي كان يبارك

حبنا .. ثم فجأة اخذ يسرقه »

واشتريا البرتقال ، والبائعة ترقبهما في تخابت ، وكادا ان يسيرا

لولا انها توقفت :

- اسمع .. يجب ان نصلي كل شيء .. دعنا نتكلم وحدنا ..

انه يعرفها جيدا ، يحفظها كما يحفظ اسمه ، ويشم في كل كلمة

تقولها ماذا تريد برغم انها تبدو باردة كالجليد .. « دعنا نتكلم وحدنا »

انه يحس في كلماتها بالخطيئة بانها تريد ان تسرق شيئا ..

« كسرير بروكست هذه الحياة .. يخطفنا قاطع الطريق ويصلينا

على سيره ، من كان طويلا قطع اطرافه حتى يساوي السرير ، ومن

كان قصيرا اخذ يجلبه حتى يتساوى مع السرير .. ومن كان مساويا

له من البداية لم يموت .. ولكن لا احد ينجو ابدا .. ان سرير بروكست

هو الذي يمزق اماننا .. في الماضي كانت امالي اقصر منه ، فمزقت

بواسطة الدكتور عمر حتى تساوباها .. والان تبدو الامال الميتة اكبر

كثيرا مما يجب .. »

- لن نتقابل ابدا وحدنا ..

- انك تعذبني وتعذب نفسك ..

- انا اعذبك ؟ كيف ؟ لقد عشت طوال حياتي غير شغوف بشيء

.. امل كل شيء سريعا .. لكنني عشت معك كل لحظة .. لقد

اصبحت كامي لا استطيع ان اتخلص منك .. هل يستطيع انسان ان

يتخلص من امه .. انت تعذبين .. لماذا ؟ انا اذن الذي لا تعذب كلما

تذكرت ان يدك هذه تلمسها يد غير يدي ، وان شفيتك ..

- سعيدة !!

وانصرفت في حدة وغضب .

* *

هل اساء التصرف ؟ هل حقيقة هو يريد ان يعذب نفسه ويعذبها؟

نعم .. نعم .. والا فلماذا يسهر الليالي يتذكر في مرارة كل كلمة

منها ، كل حركة ، كل نزهة ، كل عبارة قراها معا .. لماذا يطاردها

بنظراته ؟ لماذا ينظر الى الدكتور عمر بحقد ، والدكتور يخفي عينيه

عنه ؟

ووجد فجأة نبيل امامه :

- لماذا اختفيت انت وعابدة في نفس الوقت .. كان الدكتور

يبدو قلقا ، وان تصنع الهدوء !

قال بلا مبالاة :

- يحدث ما يحدث .. لم يعد يهمني شيء !

فقال نبيل وهو يسير به حيث وقفت انعام على بعد :

- لقد اتفقتنا على ان ننسى هذا الموضوع !

فقال في صوت غليظ :

- كيف .. كيف ؟

« قرأت ذات مرة عن انسان اصبح حشرة ونسي اهله وكنسوه

ذات يوم من المنزل . انا بدونها لا شيء .. حشرة لا يرعاها احد ..

ان على كل جزء من نفسي بصمة اصابعها .. كل فكرة تناقشنا فيها

من قبل .. كل حكاية فلتتها لها .. كل كتاب قرأناه معا .. كل ربطة

عنى اختارتها لي .. ماذا انا بدونها ؟ انني حزين .. في قلبي ماتم

دائم .. ولكنني لن ابكي ابدا .. هدى .. هدى ! »

- هدى .. هدى

نادى الفتاة الجميلة ذات الشعر البني ، وترك نبيل وانعام ..

وضحكا عليه .. وحزنا من اجله !

- { -

وفي المساء كانت السفينة تعود بافراد الرحلة .. كلام كثير ..

وضحكات .. وغناء .. وضجة .. ومجموعة تلعب لعبة « صلح »

نبيل واقف يحدق في المياه التي تنشق تحت السفينة : « كل

شيء عيث .. ما هي النهاية ؟ الموت .. لماذا اذن نعمل ونفرح ونشير

الضجة ؟ »

كان الليل قد بدأ يزحف .. القمر صغير في السماء .. مداخن

بعيدة بين الزراع .. وصوت يقول ضجرا :

- هل اقترنا ؟

ونبيل يقول لاسماعيل :

- دعنا تكمل الليلة عند زكي .. ساوصل انعام واتي اليكم !

ويقول اسماعيل لنفسه وهو يرقب عابدة تبسّم للدكتور عمر :

- وسنجلس عندئذ نجتز احزاننا .. متى ينتهي هذا الحزن ؟

محفوظ عبد الرحمن

القاهرة

طبعت على مطابع

((دار الغد))

تلفون : ٢٢٢٩٢١